مقام الرضــا

محمد سعد زغلول سالم

الإثنين ٢٠ نوفمبر ١٩٧٢

فى هَدْأَة الليل البهيم حين تهجَع نفسى إلى السكينة بمنْأَى عَن الكآبة المُوجعَة التى تَرِينُ على روحى طوال أيامى والتى تبعَثها فى حناياها آلامُ وأحزانُ البشر فى جحيم الحياة .. وفى رفقة المساء والسماء والقمر والنجوم بعيداً فى أحضان الكون السحِيق حيث يحْيا عقلى وحيدا فى وجودٍ آخر لا يُشبه فى شىءٍ هذا الوجود .. وفى دنيا وحيدة فى أعماقى أُطِّلُّ منها على دنيانا هذه وأنا أتأمَّلُ ما أراه فيها وأتمعَّنُ ما أدركه منها وأتخيَّل كلَّ ما يجْرى عليها ثم أخلق لكلِّ ما فيها ما أشاءُ أن يكونَ عليه وأقدِّر لكلِّ مَنْ فيها ما أراه كما أريد .. وفى خِضَّمِّ هادر بالرؤى والأوهام والرموز والخيالات وأحلام اليقظة والأمنيات ينسابُ فيْضه دافِقاً فى أعماقى بلا توقُّف بغير أن أعرف له مصَّباً وبدون أن أدرى من أين يجىء .. وفى قلب لحظاتٍ أقضيها بعيدا عن كلِّ ما يعِّجُّ به هذا الوجودُ من حياةٍ وأحياء وأحياها مفارقا لكلِّ ما أراه فيه من معالم وكلِّ ما أعرفه عنه من أسرار وأمضى فى ركابها وحيداً متخفِّفاً من أعباء معانيه ومتجاهِلاً رَوْع ما يتوعَّدنى به من مصير وأنْسَّلُّ فيها من إسار الزمن وأفلتُ من قبضة الفناء وأرحلُ إلى ما أحْسَبْه بدايات الأزل فى آفاق الغيب البعيد .. وفى حَضْرة الوجود الصامت حيث تتبَّدى فى جَلاء غوامِضُ المجهول وحيث لا شىءَ يُسْمَعْ فى جلال السكون إلاَّ نحِيبَ العارفين .. فى حالى هذه التى أحياها كحال الأولياء الراجينَ من الله الرضا ليسمحَ لهم بالإقتراب والساجدينَ على بُساط العبودية الممدود إلى عرش رحمته ليَمُّنَّ عليهم بالقبول والآمِلين فى ما عهِدَه على نفسه لِمَن شهدَ له بالغفران .. تلوحُ أمامَ عَيْنىَّ رؤىً غامضة لا أعرف كَنْهَها ولكنى أسمعُ أصداءها وهى تتردَّد فى أعماقى تنادينى أن إقترِبْ فى سَلام .. وعندما أجيبُ الأمْرَ وأخِرُّ ساجدا فى مقام القُرب تتبَّدى لبصيرتى أسْرارُ البداية وأرى رَأْىَ العَين واضحةً بلا غموض منابعَ الحياة .. حينئذٍ أدرك أنَّ الشكرَ هو الطريق إلى مقام الرضا حيث تُكشف لروحى غاياتُ الوجود وحقائق المصير.

